# مظاهر الدفاع عن القرآن الكريم

## لدى علماء وأئمة العصر العباسي

د. تيحال نادية
(المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر)

القرآن الكريم هو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم، ومعجزة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- العظمى، إلا أنّ أعداء الإسلام حاولوا الخدش فيه بالتشكيك في تواتره وإعجازه وسلامته من الاختلاف والتناقض وصلاحية أحكامه لكل زمان ومكان، وفي سبيل هذه الغاية اختلقوا الروايات وحرّفوا معاني الآيات، وجهل هؤلاء أنّ القرآن حفظه الله ووفق له علماء يبيّنون الحق ويبطلون الباطل، وما زادتهم سهام التشكيك والتضليل إلا ثباتا في الموقف وقوّة في الردّ وعزيمة على التواصل والاستمرار، من هؤلاء العلماء الذين ركزنا عليهم في مقالنا هذا ممّن وفقه الله للدفاع عن القرآن الكريم الإمام ابن قتيبة.

صفحة جديدة من صفحات الدفاع عن كتاب الله تطالعنا منبّهة ومحذّرة من مخاطر أعداء الإسلام، صفحة نلمس فيها دفاعا مستميتا لهج به الكثير من أئمة الإسلام، ولعل أشهر هؤلاء على الإطلاق الإمام ابن قتيبة في مؤلفاته(1) التي دافع فيها عن كتاب الله، وسنة نبيّه -صلى الله عليه وسلم- حين حاول الزنادقة رميهما بالنقص وتشويههما، ثمّ أبي الحسين محمد بن أحمد الملطي المتوفى سنة 377هـ في كتابه الردّ على أهل الأهواء والبدع، والقاسم بن إبراهيم في ردّه على التأويلات الخاطئة والمشينة التي ذهب إليها ابن المقفع في تهكمه على الذات الإلهية، وعلى القرآن الكريم، ثمّ الإمام أبي حامد الغزالي في كتابه" فضائح الباطنية"، هذا بغض النظر عن أولئك العلماء والمفسرين من أئمة الإسلام الذين انبروا لتأليف المجلدات الضخمة في الفقه والتفسير والحديث ومن هؤلاء العلماء الذين عرفهم هذا العصر -ابن جرير الطبري- الذي تضمن مؤلفه في التفسير ثلاثين مجلدا، والذي وصفه أبو حامد الأسفراييني بقوله: "لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير ابن جرير الطبري، لم يكن ذلك كثيرا"(2).



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وذلك لتحرّيه الدقّة في النقل عن الرّسول –صلى الله عليه وسلّم– وصحابته والتابعين. هذا مع ما عرفه هذا العصر من شيوع نوع آخر من التفسير اعتمد فيه أصحابه على العقل أكثر من النقل، ويمكن أن نلاحظ هاهنا طائفتين من العلماء:

أمّا الأولى، فهم المتكلّمون من المعتزلة الذين خالفوا تفاسير مدرسة التفسير المأثور ولجئوا إلى التأويل، إلا أنها وإن انتقدت وهجمت من قبل أئمة السنة، ومع خطئها في كثير من تأويلها حسب السنيّين لكن خطأها هذا كان عن نيّة صالحة، وخدمة منها للإسلام، والدليل على ذلك ما سبق لنا أن عرفناه من دفاع هؤلاء بالحجّة والفلسفة على أعداء الإسلام، لكن هذه الحجّة وتلك الفلسفة جعلتها تتوغل في متاهات أبعدتها عن هذه الديانة السمحاء في بساطتها.

أمّا الطائفة الثانية والتي يدخل في عدادها الكثير من الفرق المعادية للإسلام، فإنها تلك التي اتخذت من التفسير وسيلة لنشر مبادئها المهدّمة لشرائع الإسلام، من ذلك مثلا تفسير الباطنية لقوله عز وجل: "فقلت استغفروا ربّكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهارا"(3) فذكرت أنّ القصد من قوله تعالى "فقلت استغفروا ربّكم" أي اسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني، وأنّ قوله "يرسل السماء مدرارا" أنّ السماء هي الإمام، والماء المدرار هو الماء ينصبّ من الإمام إليهم، أمّا قوله "يمددكم بأموال وبنين" أنّ الأموال هي العلم، والبنين هم المستجيبون ومعنى قوله "يجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهارا" أنّ الجنات هي الدعوة السرّية أو الباطنية، والأنهار هي العلم الباطني(4).

كما يفسرون قوله "الشمس والقمر بحسبان"، أنّ الشمس والقمر هما الحسن والحسين، وأنّ إبليس وآدم المشهوران في القرآن هما أبو بكر وعمر، إذ أمرا بالسجود لعلي والطاعة له، فأبا واستكبرا(5).

ولن نعرض هاهنا إلى ردود أئمة السنة –أصحاب التفسير بالمأثور– على المعتزلة أصحاب التفسير بالرأي لأنّ المتكلمين وإن ابتعدوا في تفسيراتهم عمّا عرف وأثر عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– وكبار الصحابة إلا أنّ بعدهم ذاك أو خطأهم حسب علماء السنة، إنما كان عن اجتهاد استهدف منه خدمة الإسلام



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبالتالي فإنّ مثل هؤلاء لا يدخلون في زمرة أعداء الإسلام وإنما سنكتفي بردود ومواقف المسلمين من أعداء الديانة الإسلامية، إذ كان عداء هؤلاء امتداد لحقدهم وكراهيتهم للقومية العربية حاملة لواء الإسلام.

ومن هؤلاء نذكر ابن المقفع، إذ اتخذ هذا الأخير من آي القرآن وسيلة لتشويه معانيه، وموضعا لسخريته ونقده ومعارضته، ممّا جعل القدماء يسخطون عليه ويرون فيه تحدّيا لكتاب الله، ومن أشهر هؤلاء القاسم بن إبراهيم، الذي ردّ كيده إلى نحره، فيذكر عنه إساءته لفهم وتأويل قوله سبحانه وتعالى: "ياحسرة على العباد، ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون"(6)، فيستنكر ما وصف به ذات الله، انطلاقا من هاته الآية بالأسف والحسرة والغيظ، فردّ عليه المؤلف ردّا ألجمه به، قائلا عنه "كذب عدوّ الله لا يقال لله بحسر ولا غيظ، ولكن يقال له أسفوا إذ عصوا الله فأسرفوا، ولا يقال تحسر الله ولا اغتاظ "(7).

وبيّن له أنّ الله سبحانه وتعالى ليس ممّا يغاظ، وأنّ الحسرة الوارد ذكرها في الآية السابقة إنما هي على العباد لا عليه، وتحسّر فيهم على الهدي لا فيه، هذا هو المقصود من الكلمة لا ما ادّعاه ابن المقفع من معنى لا يحل إلا بكل مستضعف، فالله سبحانه وتعالى أعظم من أن تصل إليه الآلام(8).

وهذا إمام آخر من الأئمة الذين صالوا وجالوا في الدّفاع عن الإسلام ذاك هو الإمام العلامة ابن قتيبة، فردّ على من أعابوا القرآن الكريم بردود(9) أبانت إياه بالاختلاف والتناقض وغيرها من المطاعن التي وجّهت إلى هذا الكتاب المقدّس، نلمس هذا بوضوح من خلال كتاب تأويل مشكل القرآن، كما يظهر لنا اجتهاد محمود من طرف هذا الإمام في الردّ على بعض الفرق التي ادّعت الإسلام، كالمشبهة، وراحت تعمل على تفسيره وتأويله، فوقعت في أخطاء غيّرت بها مجرى المعاني المقصودة من القرآن، فاجتهد ابن قتيبة لتبيين أخطائهم في التفسير الناجمة عن جهل باللغة.

ولا بأس هاهنا من تقديم مثال على ذلك فيذكر ابن قتيبة خطأ من الأخطاء التي وقعت فيها المشبهة في تأويلها لقوله: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله، يجعل صدره ضيّقا حرجا"، فيذكر ابن قتيبة الطامة التي وقع



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فيها هؤلاء بجعلهم الإرادة في الهداية والإضلال للعبد لا لله، وأكّد أنه بتحديدهم هذا وقعوا في أنحس غلط، وأحول كلام إذ الإرادة لا يجوز أن تكون للعبد وقد وليها اسم الله، وهو مرفوع بإجماع القرّاء وأنه لو ورد اسم الجلالة الله منصوبا لكان ذلك أقرب من المعنى الذي أرادوه، وإن كان لا يجوز أيضا لأنه يضم في الكلام "من" فيكون معناه من يريد من الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام (من الاختلاف في اللفظ والردّ على المشبهة، ابن قتيبة، ص:16) .

جهلهم، ونقصهم عن إدراك ما سمى به القرآن فانجده يعقد لهم أبوابا للردّ عليهم فيما ادّعوه من تناقض واختلاف في مواضع آياته، وما رموا به القرآن من متشابه والتباس قائلين في تلميح إلى بطلان سماوية هذا الكتاب: "ماذا أراد بإنزال المتشابه في القرآن من أراد لعباده الهدى والبيان"(10) . لقد انتدب ابن قتيبة نفسه للدّفاع عن القرآن وتبيين عوج المطاعن التي وجهها أعداء الإسلام للقرآن، فأبلى بلاءا حسنا في دفاعه ذاك .

فبيّن في مقدمة كتابه " تأويل مشكل القرآن" أنّ كتاب الله لا يمكن أن يعرف ويفقه معانيه إلا من كثّر النظر فيه، واتسع علمه به، وأدرك مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون باقي اللغات إذ "ليس في جميع الأمم، أمّة أوتيت من العارضة والبيان باتساع المجال ما أوتيته العرب"(11) .

وفي الدّفاع عن كتاب الله يقول: "أحببت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة، وبراهين البيّنة، وأكشف للناس ما يلبسون"(12)، أمّا القصد الذي أراده ابن قتيبة من وراء تأليفه للكتب المدافعة عن الإسلام فيقول: " . . .إنما كان القصد منها الإخبار عن جهلهم، وجرأتهم على الله تعالى بصرف الكتاب إلى ما يستحسنون، وحمل التأويل على ما ينتحلون . . ."(13) .

وفي الردّ على أعداء القرآن الذين اتهموه بالاختلاف واللحن في القراءات وفي الأحرف والحركات مدّعين أنّه ليس من عند الله وإلاّ لما وجد فيه مثل هذا الخلاف محتجّين في ذلك بقوله عزّ وجل: "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"(14)، وبقوله "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه" .



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهذا ابن عبّاس يقرأ "واذّكر بعد أمة"(15)، وغيره يقرأ "بعد أمّة" وعائشة تقرأ "إذ تلقونه" وغيرها يقرأ "إذ تلقونه"(16) فوجد أعداء الإسلام في اختلاف هذه القراءات لكتاب واحد دليلا على بطلان هذا الكتاب.

فردّ ابن قتيبة عليهم مطاعنهم، مبيّنا أنّ هذا الاختلاف الذي احتجّوا به، ينقضه ويهوّن شأنه حديث للرّسول -صلى الله عليه وسلّم- في قوله: "نزل القرآن على سبع أحرف، كلّها شاف كافٍ فاقرءوا كيف شئتم"(17)، وقد أوّل ابن قتيبة قول الرّسول -صلى اله عليه وسلم- هذا شارحا إيّاه، مبيّنا لفحواه، ذاكرا أنّ معنى ذلك كله هو أنّ القرآن نزل على سبعة أوجه من اللغات متفرقة وأنّ كلاّ منها صحيح سليم الدّليل على ذلك رواية للطبري عن عمر ابن الخطاب جاء فيها ما يلي: "سمعت هشام ابن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وقد كان النبي أقرأنيها، فأتيت به النبي (ص) فأخبرته فقال له: اقرأ، فقرأ تلك القراءة، فقال: هكذا أنزلت: ثمّ قال لي اقرأ، فقرأت، فقال هكذا أنزلت، ثمّ قال: إنّ هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرءوا منه ما تيسّر(18) فمن قرأه قراءة عبد الله فقد قرأه بحرفه ومن قرأه قراءة أبي فقد قرأه بحرفه ومن قرأه قراءة زيد(19) فقد قرأه بحرفه".

وراح بعد ذلك ابن قتيبة متدبرا أوجه الخلاف في هاته القراءات فوجدها سبعا(20). فأمّا الأوّل فهو في إعراب الكلمة، أو في حركة بنائها ممّا لا يغيّر صورة الكلمة في الكتاب ولا معناها من ذلك قوله "هؤلاء بناتي أطهر لكم"(21) و"أطهر لكم"، وقوله: "وهل نجازي إلا الكفور" "وهل يجازى إلا الكفور". والوجه الثاني للاختلاف يكون في إعراب الكلمة، وحركات بنائها ممّا يغيّر معناها، ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب نحو قوله "ربنا باعد بين أسفارنا"(22) و"ادّكر بعد أمّة"(23) و"بعد أمة". أمّا ثالث حالة لهذا الاختلاف إنما يجيء في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغيّر معناها، ولا يزيل صورتها من ذلك قوله "وانظر إلى العظام كيف ننشزها"(24) وننشرها. أمّا الحالة الرابعة فيكون الاختلاف في الكلمة بما يغيّر صورتها في الكتاب، ولا يغيّر معناها نحو قوله: "إن كانت إلاّ زقيّة واحدة" و"صيحة"(25) و "كالصوف المنفوش" و"كالعهن"(26).



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأمّا الحالة الخامسة فيكون الاختلاف فيها بما يزيل الصورة والمعنى عن الكلمة نحو قوله "وطلع منضود" و"طلح منضود"(27) والوجه السادس لهذا الاختلاف، إنما يكون في التأخير والتقديم نحو قوله: "وجاءت سكرة الموت بالحقّ" وفي موضع آخر "وجاءت سكرة الحقّ بالموت"(28) والحالة الأخيرة من هذا الاختلاف يكون بالزيادة والنقصان نحو قوله "وما عملت أيديهم" "وما عملته أيديهم"(29) .

ويعطي لهذا الاختلاف تعليلا موفقا، فيذكر أنّ كلام الله كان ينزل به الروح الأمين على الرسول –صلى الله عليه وسلم– في كل شهر من شهور رمضان ميّسرا به على عباده ما يشاء، فكان من تيسيره أن أمره بأن يقرأ كل قوم بلغتهم وما جرت عليهم عادتهم، فقرأ الهذلي "عتى حين" ويريد "حتى حين"(30) لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها، وقرأ الأسدي "يعلمون وتعلم" و"تسودّ وجوه"(31)، و"ألم إعهد إليكم"(32) .

وهكذا إلى غيرها من الاختلافات التي كانت تطرأ على هذه القبائل العربية، ولو أنّ هذه القبائل أمرت بأن تتخلى عمّا اعتادت عليه وألفته لا اشتدّ عليها ذلك، ولعظمت المحنة في عينها، ولما تمكنوا من ذلك إلا بعد ترويض طويل، وإذلال للسان، إلا أنّ الله برحمته ولطفه جعل لهؤلاء متسعا في اللغات وتصرّفا في الحركات كتيسيره لهم الدّين حين أجاز لهم على لسان رسوله (ص) أن يأخذوا باختلاف العلماء من صحابته في فرائضهم وأحكامهم، وصلاتهم وصيامهم، وغيرها من شرائع ديانة الإسلام السمحاء(33) .

ثمّ وضح بعد ذلك أنّ الاختلاف الموجود في القرآن إنما هو اختلاف تغاير لا اختلاف تضاد، فإنّ هذا الأخير يؤكد ابن قتيبة عدم وجوده في القرآن إلا في الأمر والنهي، والناسخ والمنسوخ، أمّا اختلاف التغاير فهو موجود ولا أثر سلبي فيه من ذلك قوله "وادّكر بعد أمّة"(34) أي بعد حين، و"بعد أمه" أي بعد نسيان، والمعنيان جميعا وإن اختلفا صحيحان، لأنه ذكر أمر يوسف بعد حين، وبعد نسيان له، ومنه أيضا قوله "ننشرها"(35)، لأنّ الإنشار هو الإحياء، والإنشاز هو التحريك للنقل والحياة حركة فلا فرق بينهما، وأكد ابن قتيبة بعد ذلك أنّ كل اختلاف وجد في القرآن من هذا القبيل، أو كان اختلاف في التقديم والتأخير، أو زيادة ونقص فإنما هو على مثل هذا السبيل(36) .



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هكذا وقد جوبه أعداء القرآن بردود جمّة أبطلت دعواهم وفنّدت زعمهم، فيما رموا به القرآن من تناقض بين معاني آيه، هذا التناقض الذي يرون فيه ما يلبس القارئ، ويجعله يشك في أن يكون هذا الكتاب من ربّ العالمين، يقول أحد الأئمة فيما رمى به هؤلاء القرآن من تناقض "هلكت الزنادقة وشكوا في القرآن حتى زعموا أنّ بعضه ينقض بعضا في تفسير الآي المتشابه كذبا وافتراءا على الله جل اسمه من جهلهم بالتفسير للآي المحكم"(37) .

ويؤكد هؤلاء الأئمة أن لا تناقض في القرآن الكريم وأنّ بعضه يصدّق بعضا إلاّ أنّ للقرآن مواضع ومواطن عديدة لا يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به(38) . من ذلك مثلا ماادّعته الزنادقة من تناقض بين قوله "فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان"(39)، بينما يقول في موضع آخر "فوربّك لنسئلنّهم أجمعين عمّا كانوا يعملون"(40)، و مثل قوله: "هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون"(41)، ثم يقول في موضع آخر "ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون"(42) ومثل قوله: "وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون"(43) بينما يقول في موضع آخر "فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون"(44) .

يضيفون إلى ذلك، تدعيما لفكرة التناقض والاختلاف في آي الذكر الحكيم، ما ورد في القرآن من تشبيه شيء مع عدم تقدم الكلام عما يشبه به (45) من ذلك مثلا قوله "مثل الجنة التي وعد المتقون"(46) فيقولون أين ذاك الشيء الذي جعلت الجنة له مثلا، يظهر ذلك أيضا في قوله "يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له"(47) ولم يأتي بهذا المثل.

ومنه أيضا طعنهم في قوله عزّ من قائل: "وبلغت القلوب الحناجر" فقالوا كيف تبلغ القلوب الحناجر، والقلب إذا زال عن موضعه شيئا مات صاحبه (48)، هذا إلى تعلقهم بكثير من الآيات التي ورد فيها المجاز،مما استعصى عليهم الوصول إلى معناه، متخذين من هذا الغموض دليلا على ما رموا به القرآن من نقائص وعيوب. إذ لو كان هذا الكتاب –في رأيهم– من عند الله لما ورد فيه المتشابه الذي من شأنه أن يعمق الفجوة بين العباد والإله، فقالوا: "ماذا أراد بإنزال المتشابه في القرآن، من أراد لعباده الهدى والبيان؟"(49) ويرد ابن قتيبة، وغيره من



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العلماء عليهم مطاعنهم تلك مفسرين محلّلين لمعاني الآيات التي احتجّ بها هؤلاء على نقض القرآن، لما فيه من تضارب في معاني آياته فيذكر ابن قتيبة موضحا ومبيّنا أن لا تناقض في قوله: "فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان"(50) وقوله في موضع آخر "فوربّك لنسألنّهم أجمعين عمّا كانوا يعملون"(51)، ذلك أنّ يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى "مقداره خمسين ألف سنة"(52) .

فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة "انشقت لسماء فكانت وردة كالدّهان"(53)، وانقطع الكلام وذهب الخصام، واسودت وجوه قوم، وابيضت وجوه آخرين، وعرف الفريقان بسيماهم، وتطايرت الصحف من الأيدي: فآخذ ذات اليمين إلى الجنّة، وآخذ ذات الشمال إلى النار .

وكثيرا ما دعّم ابن قتيبة تفسيراته التي وضّح بها ما التبس على الآخرين، أو بالأحرى ما اتخذ عند أعداء الإسلام دليلا على التناقض والاختلاف بآراء الصالح والعلماء من ذلك مثلا ما أيّد به شرحه وتفسيره لآيتين الأوليتين بما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه في في قوله: "فيومئذ لا يسأل إنس ولا جان"(54) إذ قال هو موطن لا يسألون فيه ومثله "ولا يسأل عن ذنوبهم المجر مون"(55) .

وقوله: "لا تختصموا لديّ وقد قدّمت إليكم بالوعيد"(56)، ويذكر بعدها أنّ الجواب نفسه فيما يخص الآيتين اللتين اتخذ منهما الزنادقة دليلا على تناقض القرآن، فقوله "هذا يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون"(57)، وقوله عز وجل في موضع آخر "ثم أنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون"(58)، فتأويل ذلك أن الخصام يقع حين يدعى المظلومين على الظالمين، فإذا وقع القصاص، وثبت الحكم قيل لهم لا تختصموا، ولا تنطقوا ولا تعتذروا فليس ذلك بمغن عنكم ولا نافع، فيخسئون، وتتويجا لما يذهب إليه ابن قتيبة من تأويل وتفسير، يروي ما جاء عن السلف الصالح فيذكر أنه روي عن معمر عن قتادة: أنّ رجلا جاء إلى عكرمة فقال: أرأيت قول الله تعالى: "هذا يوم لا ينطقون" و قوله: "ثم إنكم يوم لقيامة عند ربّكم تختصمون" فقال إنما هي مواقف منها فتكلموا واختصموا ثم ختم الله على أفواههم، فتكلمت أيديهم وأرجلهم، فحينئذ لا يتكلمون(59) وقريب من هذا التفسير نجده عند الملطي.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فيذكر في الردّ على من يتخذ من هاتين الآيتين دليلا على تضارب القرآن فيقول، إنّ هذا عند من يجهل التفسير ينقض بعضه بعضا، إلا أنهما في الحقيقة غير متناقضان، ولكنهما في تفسير الخواص من المواطن مختلفان، فأما تفسيره لـ "هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون" أنه وّل ما تجتمع الخلائق بعد البعث فهم لا ينطقون في ذلك الموطن ولا يؤذن لهم بذلك مقدار ستّين سنة، ثمّ يؤذن لهم في الكلام، فيكلم بعضهم بعضا "ثمّ إنكم يوم القيامة عند ربّكم تختصمون" عند الحساب، ثم يقل لهم "لا تختصموا لديّ"(60) بعد الحساب(61) .

أما قوله: "وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون"(62)، بينما يقول في موضع آخر "فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون"(63)، فيذكر في تحليل سبب هذا الاختلاف، أنّ كل من الآيتين تعبران عن موقف معين بحيث أنه حين ينفخ في الصور نفخة واحدة، تنقطع حينها الأرحام وتبطل فيه الأنساب، ويشغل كل امرئ بنفسه من التسآل فإذا نفخ فيها أخرى "قاموا ينظرون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون"(64) وقالوا "من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعدنا الرحمن، وصدق المرسلون"(65) .

وتفسير شبيه بالسابق يذهب إليه الملطي فيذكر: أمّا قوله عز وجل: "فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" عند من يجهل التفسير تنقض آية أخرى وهي التي جاء فيها "وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون" فيقول في تفنيد هذا الذي ذهبت إليه فئة الزنادقة مؤكدا أن لا انتقاض بين الآيتين، ولكنهما في تفسير الخواص من المواطن مختلف، فأما تفسير "فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية قام الخلائق من قبورهم، فلا أنساب بينهم في ذلك الموطن، ولا يعطف بعضهم على بعض لقرابته حتى ينجوا من الحساب إلى الجنة، ولا يسأل بعضهم بعضا فذلك قوله جل ثناؤه: "ولا يسأل حميم حميما"(66) . وذلك قوله "يوم يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه"(67)، فإذا صاروا إلى الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون إذ رأى بعضهم بعضا، فهذا تفسيرها(68) . وفي الردّ دائما على هؤلاء الزنادقة الذين طعنوا بآي القرآن قائلين كيف لهذا القرآن أن يقول "مثل الجنة التي وعد المتقون"(69)، ولم يأت



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالشيء الذي جعل للجنة مثلا، فيوضح لهم ابن قتيبة بأنّ الله سبحانه وتعالى إنما أراد بقوله "مثل الجنة" صورتها وصفتها، وأكد ذلك برواية جاء فيها أنّ عليا كان يقرأ "مثال الجنة" أو "أمثال الجنة"، وهو بمنزلة مثل، إلا أنه أوضح وأقرب في أفهام الناس(70) ومما واجه به ابن قتيبة مطاعن الزنادقة على كتاب الله، حين وصفوه بالكذب بقولهم "كيف يكون في النار نبت وشجر، والنار تأكلهما"(71)، وقد توصل هؤلاء إلى نقدهم ذاك، من خلال الآيات العديدة التي ورد فيها ذكر الشجر في النار من ذلك "إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين"(72)، فاستبعدوا واستنكروا نبت الشجر في النار إذ المعروف عن النار أنها تأكل الشجر فوضح ابن قتيبة أنّ ما ورد ذكره من شجر في النار "الضريع"(73) و "الشجرة الزقوم قد يكونا نبتتين من النار نفسها أو من جوهر لا تأكله النار، وكذلك سلاسل النار وأغلالها وأشكالها وعقاربها وحيّاتها، لو كانت كتلك التي يعرفها الإنسان في الحياة الدنيا، لما أبقت عليها النار، وإنما دلنا سبحانه وتعالى على الغائب عنده بالحاضر عندنا، و الأسماء متفقة للدلالة والمعاني مختلفة"(74) .

وفي الردّ عليهم حين قالوا "ماذا أراد بإنزال المتشابه(75) في القرآن لمن أراد لعباده الهدى والتبيان" فكان ممّا أجابهم به من إجابة ردّ بها كيد الزنادقة إلى نحورهم، ذاكرا أنّ كل باب من أبواب العلم سواء كان فقها أو حسابا أو فرائضا أو نحوا، فإنه لا يمكن أن يدرك أقصاه، إلا بارتقاء المتعلم فيه رتبة بعد رتبة حتى تكون للعالم فضيلة النّظر، وحسن الاستخدام، ولتقع إذ ذاك المثوبة من الله على حسن العناية. فالقرآن نزل بلغة العرب لفظا ومعنا، وعلى نفس مذهبها في الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد .

والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلاّ اللقن(76)، ولو كان القرآن كله واضح مفهوم بسيط يستوي في معرفته العالم والجاهل "لبطل التفاضل، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر"(77)، ويتحقق بذلك العجز والبلادة، ويقع الابتعاد عن البحث والتنقيب والتفكر والتدبر للوصول إلى جوهر معانيه. ولنا في كلام الرسول (ص) و كلام العرب من خطباء وشعراء الكثير من الأمثلة التي ورد فيها هذا النوع من الغموض، لكن ليس معنى ذلك أنّ المتشابه في القرآن



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا يعلمه إلاّ الراسخون في العلم، فلم ينزل القرآن إلاّ لينفع به عباده ويدل به على المعاني التي أرادها سبحانه وتعالى، فما بقي فيه أيّ غامض فلم يتوقف المفسرون عن شيء من القرآن بحجة أنه متشابه لا يعلمه إلا الله، بل فسروه كله وفسروا حتى الحروف المقطعة في أوائل السور مثل: الر، وحم، وطه، وأشباه ذلك(78) وفي الردّ على الزنادقة الذين طعنوا على القرآن لما في أسلوبه من مجاز لأنه في نظرهم كذب، إذ لا يجوز حسب رأيهم نسبة الإرادة للجدار، فهو شيء لا يمكنه أن يريد، وكيف له أن يسأل القرية، والقرية لا تسأل، فيقول ابن قتيبة مسفها إيّاهم: "هذا لمن أبشع جهالاتهم وأدله على سوء نظرهم، وقلة أفهامهم"(79) ويخاطب هؤلاء المنكرين لقوله عزّ وجل "جدارا يريد أن ينقضّ"(80) .

كيف يمكن أن يقال عن جدار همّ على الانهيار، فلا يمكن أن يجد هؤلاء بدّا من أن يقولوا جدار يهم أن ينقض، أو يكاد أن ينقض أو يقارب أن ينقض وأيا ما كان جعل الجدار فاعلا، ثم نلمس بعد ذلك عبارة عن ابن قتيبة يوحي فيها بتصغيره لسان باقي اللغات مقارنة بما في العربية من معاني وأبعاد وتوغلات تعجز عنها لغات العالم، مستبعدا تحقق إمكانية التعبير عن مثل هذا المعنى بمثل هذه الألفاظ في أية لغة من لغات العجم(81) .

وكثيرة جمّة هي الأمثال التي نسبت فيها أفعال لغير الإنس أورد ابن قتيبة البعض منها، مؤوّلا لها، شارحا إيّاها، حتى يتضح أمرها، ويدرك كنهها، موضحا أنّ ذلك سرّ من أسرار جمال اللغة العربية فمن ذلك قوله تعالى "يوم نقول لجهنم هل امتلأت، وتقول هل من مزيد"(82)، فالمقصود بذلك التعبير عن سعتها .

ثم يشير ابن قتيبة لموقف الزنادقة في تعجبهم من نطق جهنم أو نطق السماء والأرض، فيذكر أنّ الله تبارك وتعالى ينطق الجلود والأيدي والأرجل ويسخر الجبال والطير بالتسبيح فقال: "إنا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق، والطير محشورة كلّ له أوّاب"(83)، وقال أيضا "يا جبال أوبي معه والطير"(84) قال: "وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليما غفورا"(85) .



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولنا في حديث الرسول (ص) الأمثلة العديدة من قبيل هذا الذي استغربته الزنادقة، واتخذته حجة لتكذيب القرآن، من ذلك ما روي في الحديث عن جهنم إن النار تقول لربّها : "إنك وعدتني ملئي، فيضع قدمه، فتقول قط قط، بمعنى حسبي"(86) . هذا بغض النظر عن كلام العرب الذي حفظته لنا طوايا الكتب، والذي حوى العديد من الجمل والعبارات التي وظّف فيها المجاز، فجاءت من قبيل هذا الذي تعجّبت له الزنادقة، وجعلته سبيلا للطعن بالقرآن، لا بأس أن نورد مثالا، من ذلك قولها "بأرض فلان شجر قد صاح" أي طال، ومعنى ذلك أنّ الشجر علا وارتفع ودل على نفسه، فجعل كأنّه صائح لأنّ الصائح يدل على نفسه بصوته(87) .

واسترسل ابن قتيبة بعد ذلك في إيراد الأمثلة العديدة، من ذلك ممّا يدرج في باب المجاز مؤكدا أنه لا كذب في المجاز كما ادّعى أعداء القرآن، وجهلة أسرار الأسلوب القرآني العربي، لأنه لو كان الأمر كذلك لكان أكثر كلام العرب فاسدا، لأنها تقول نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل(88) .

وعموما فإنّ مثل هذه المعاني لا يمكن أن يفقهها ويصل إلى فحواها من عميت بصيرته عن رؤية نور الحق لذلك حكم عليهم أئمة الإسلام بالهلاك، كيف لا، وشكّهم اتجه إلى كتب الله، فرموه بما رموه به من ادّعاءات كاذبة وافتراءات مغرضة. وهكذا فقد امتدت أصابع الزنادقة خدشا بآي الذكر الحكيم تعييبا وانتقاصا، إلاّ أنّ الله مكّن للمسلمين بأن ردّوا كيد هؤلاء،و أظهروا جهلهم، وكشفوا خبثهم، فأكد أعداء الإسلام بفعلهم ذاك انحطاطهم وتدنيهم عن الارتقاء لما اختاره الله لعباده الأتقياء، فخذلوا شرّ خذلان.

**الهوامش:**

1- من هذه المؤلفات: تأويل مشكل القرآن، تأويل مختلف الحديث، الرد على الجهمية والمشبهة، الرد على غريب الحديث.

2- أنظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، د. حسن



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إبراهيم طه، ص: 339.
3- سورة نوح، 10- 12.
4- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، ص:343.
5- أنظر فضائح الباطنية، أبو حامد الغزالي، ص:13.
6- يس/30.
7- الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع، القاسم بن إبراهيم، ص:33.
8- أنظر المصدر نفسه، ص:33.
9- اقتصرنا هاهنا على الردود التي وجهها ابن قتيبة لمن صرّح بعدائه للقرآن متهما
10- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة،ص:62.
11- أنظر مقدمة تأويل مشكل القرآن.
12- تأويل مشكل القرآن، ص: 73.
13- المصدر نفسه، ص: 48.
14- سورة النساء، الآية 82.
15- سورة يوسف، الآية 45، الأمة: النسيان كما في اللسان 17/323.
16- سورة النور، الآية:15.
17- أنظر تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص: 26،و أنظر الحديث نفسه مع تغيير طفيف في اللفظ في تيسير الوصول، ج1، ص:244.
18- تيسير الوصول،لعبد الرحمن بن علي المعروف بابن الديبغ الشيباني الزبيدي الشافعي ج1، ص: 243- 244.
19- يقصد زيد بن ثابت المتوفى سنة 45، وأبي بن كعب المتوفى سنة 35، وعبد الله بن مسعود.
20- أنظر تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص:27.
21- سورة هود الآية: 78.
22- سورة سبأ، الآية 19.
23- سورة يوسف الآية 45.
24- سورة البقرة، الآية 259،
25- سورة يس، الآية 29.
26- سورة القارعة، الآية:5.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

27- سورة الواقعة، الآية 29.
28- سورة ق، الآية 19.
29- سورة يس الآية 35.
30- سورة المؤمنون الآية 54، والصافات: 174
31- سورة آل عمران ،الآية 106.
32- سورة يس، الآية60.
33- أنظر تأويل مشكل القرآن، ص: 30.
34- سورة يوسف، الآية 45.
35- سورة البقرة، الآية 259.
36- أنظر تأويل مشكل القرآن، ص: 30- 31.
37- أنظر الرد على أهل الأهواء والبدع، الملطي، ص:43.
38- أنظر المصدر نفسه، ص:43
39- سورة الرحمن، آية 39.
40- سورة الحجر، آية 92- 93.
41- سورة المرسلات، آية 35.
42- سورة الزمر، آية 31.
43- سورة الطور ،آية 25.
44- سورة المؤمنون،آية 101.
45- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة،ص:20.
46- سورة الرعد،آية 35.
47- سورة الحج،آية 73.
48- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص:20.
49- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص:25.
50- سورة الرحمن، آية 39.
51- سورة الحجر، آية 92.
52- سورة المعارج،آية 4.
53- سورة الرحمن آية37.
54- سورة الرحمن، آية 37.
55- سورة القصص، آية 78.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

56- سورة ق، آية 28.
57- سورة المرسلات، آية 35.
58- سورة الزمر، آية31.
59- تأويل مشكل القرآن،ص:47.
60- سورة ق،آية 28.
61- أنظر الرد على أهل الأهواء والبدع، للملطي،ص:44.
62- سورة الطور، آية 25.
63- سورة المؤمنون، آية 101.
64- إقتباس من سورة الصافات، آية:27.
65- سورة يس، آية:52.
66- سورة المعارج، آية :10
67- سورة عبس، الآيات:34- 37.
68- أنظر الرد على أهل الأهواء والبدع، الملطي، ص: 45.
69- سورة الرعد، آية:35.
70- أنظر تأويل مشكل القرآن، ص: 59.
71- المصدر نفسه، ص:49.
72- سورة الصافات، آية64- 65.
73- الضريع أصلا من أقوات الأنعام لا من أقوات الناس، وإذا وقعت فيه الابل لم تشبع، وهلكت هزلا (أنظر اللسان 8/223)
74- أنظر تأويل مشكل القرآن، ص:49.
75- يقال لكل ما غمض ودق متشابه، وأصل التشابه أن يشبه اللفظ لفظا في الظاهر وفي المعنيان مختلفان، ويقال: اشتبه عليّ الأمر، إذا أشبه غيره فلم تكد تفرق بينهما، وشبهت عليّ إذا الحق بالباطل، ومنه قيل لأصحاب المخارق أصحاب الشبه لأنهم يشبهون الحق بالباطل، ومثل المتشابه المشكل، وسمي مشكلا لأنه أشكل أي دخل في شكل غيره، فاشبهه وشاكله (أنظر اللسان 13/381) .
76- اللقن هو سريع الفهم (انظر اللسان 17/275)
77- أنظر تأويل مشكل القرآن، ص: 62.
78- انظر المصدر نفسه، ص: 73.
79- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص:99.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

80- سورة الكهف، آية 77.
81- أنظر تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص:99- 100ز
82- المصدر نفسه، ص:100.
83- سورة ص،آية:99.
84- سورة سبأ، آية: 10.
85- سورة سبأ، آية:10.
86- أنظر اللسان، 9/256.
87- أنظر تأويل مشكل القرآن، ص:100.
88- أنظر المصدر نفسه، ص:99.

**فهرس المصادر والمراجع:**

- الاختلاف في اللفظ والردّ على الجهمية والمشبهة، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1985.
- الرد على أهل الأهواء والبدع، الملطي أبي الحسين محمد، مطبعة الدولة، استانبول، 1936.
- الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع، القاسم ابن إبراهيم، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962.
- تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية، 2000.
تأويل مشكل القرآن، للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة.
- تيسير الوصول، عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الديبغ الشيباني الزبيدي الشافعي، الدار النموذجية، . 2001
- فضائح الباطنية، أبو حامد محمد الغزالي، تحقيق محمد عبد الرحمن بدوي، دار الكتب الثقافية، الكويت.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري الرويفعي، طبعة دار المعارف، القاهرة، مصر.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com